

طلعت فراج | Talaat Farrag *

مراجعة كتاب: الاستغراب العربي: صور أميركا في الشرق الأوسط لعيد محمد

Book Review: *Arab Occidentalism: Images of America in the Middle East* by Eid Mohamed

عنوان الكتاب في لغته: *Arab Occidentalism: Images of America in the Middle East*

المؤلف: عيد محمد Eid Mohamed
 تاريخ النشر: 2015
 الناشر: I.B. Tauris & Co Ltd
 عدد الصفحات: 320 صفحة.

على يد المستعمر الغربي، وأيضاً ناقداً للدراسات والنظريات المعرفية الغربية في كافة المجالات. وعلى الجانب الآخر، يرفض بعض الكتاب العرب هذا المصطلح باعتبار معناه اللغوي «الناقص»، وهو الميل نحو الغرب انبهاراً بثقافته ومعارفه والقبول بقيمه المختلفة مع قيمنا الشرقية، والمتعارضة معها أحياناً.

لذا، يمثل الكتاب الحالي محاولة نقدية متوازنة لمظاهر للاستغراب العربي، متمثلة في الحالة المصرية في الأغلب، تتضمن تعقيدات التصور والصورة في العالم العربي فيما يتعلق بالآخر الغربي. وهنا يتفق الكاتب مع منظور المفكر

كما هو الحال في المصطلحات الناشئة، لا يزال مصطلح الاستغراب مثيراً للجدل في العالم العربي، نظراً إلى عمومية اللفظ الذي يجمع في ظلاله أفكاراً متنوعة تبلغ حد التناقض. ويتبع النقاشات المعاصرة حول المصطلح، يبدو تباين ردات الأفعال نتيجة للاختلاف في النظرة إليه أو في استقباله. فهناك من يتبنى المصطلح باعتباره وسماً لخطاب مناهض للاستشراق الغربي الذي حصر العالم العربي في دائرة الاستلاب أو اللافعل، ومن ثم باعتباره تأسيساً لنظرية جديدة يكون فيها الشرق فاعلاً، ومعبراً عن ذاته وناقضاً للصورة النمطية المنسوبة إليه ظلماً

* دكتوراه الأدب المقارن، وباحث مشارك بمشروع الهويات العابرة للثقافات بمعهد الدوحة للدراسات العليا.

PhD in Comparative Literature; Research Associate, Transcultural Identities Project, Doha Institute for Graduate Studies.

الراحل حسن حنفي، في كتابه مقدمة في على الاستغراب، المختص بأهمية مبادرة الباحث العربي إلى فاعلية تقديم معرفة موضوعية عن الشرق؛ تناقض المعرفة غير الموضوعية التي رسختها النظرية الاستشراقية والمبنية على منظور استعلائي، كان المفكر الكبير إدوارد سعيد أبرز ناقدية وناقضية. ومن هذا المنطلق، يمثل تيار الاستغراب مقارنة معرفية تهدف إلى التغلب على شعور العرب بالنقص أو بالدونية أمام الغرب (كما يشير إلى ذلك حسن حنفي في الكتاب سالف الذكر فيراها عقدة تاريخية بين الأنا والآخر)، ومجابهة المركزية الغربية المهيمنة معرفياً، حتى على الفضاءات المعرفية العربية. وفي هذا الإطار يمثل الكتاب الحالي تحولاً في النظرة إلى الغرب/ الولايات المتحدة، لا كذات دارسة، ولكن كموضوع مدرّس. ويتضمن ذلك استعادة الصوت العربي في التعبير عن الهوية العربية ذاتها ورؤيتها للآخر الغربي، في ظل عملية تفاوض ثقافي تعددي متوازن، يحوي نقداً موضوعياً واعياً للأنا والآخر على السواء، تتجاوزاً للصور النمطية المبنية على رؤى أحادية غارقة في الرفض/ الإقصاء أو الاستلاب/ الاقتتان.

مثل سالفه التمثيلات العربية للغرب: المواجهات بين الشرق والغرب في الأدب الروائي العربي لرشيد العناني، وأميركا في مرآة عربية: صورة أميركا في أدب الرحلات العربي لكamal عبد الملك، يتسم كتاب عيد محمد الاستغراب العربي: صورة أميركا في الشرق الأوسط بالجدّة في استعراضه لثلاث الصور الذهنية العربية عن الولايات المتحدة الأمريكية، في المنتج الثقافي والأدبي العربي، وفي تركيزه على مصر حالة للدراسة. وبينما يعالج كتاب رشيد العناني مظاهر التمثيل أو التصوير الروائي

العربي للغرب في المراحل الثلاث؛ ما قبل الاستعمار، والاستعمارية، وما بعد الاستعمار، ويتقصى كتاب كمال عبد الملك صورة أميركا في السرديات العربية، وخاصة التي يقدمها أدب الرحلات العربي أو أدب المغتربين العرب، فإنّ عيد محمد يقدم دراسة نقدية ثرية عن مفاهيم العرب، ممثلين في المصريين، للغرب أو رؤية العربي/ المصري للغربي مثلاً، بدرجة كبيرة، في الأميركي خلال العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، والذي تخلل أحداث 11 سبتمبر 2001 وثورات الربيع العربي، وفي القلب منها ثورة 25 يناير 2011، من خلال استعراض طائفة متنوعة من الأعمال الأدبية والفكرية والصحافية، في محاولة من الباحث لتسليط الضوء على المنتجات الأدبية والثقافية العربية الناقدة والناقضة للاستشراق الغربي، من خلال تأكيد الحضور العربي الفاعل في إنشاء الصورة الذهنية عن الغرب وتمثيلها في العقل العربي، أو ما اصطلح على تسميته بـ «الاستغراب العربي». وتكمن أهمية الكتاب في إدراك الباحث فخّ الثنائيات الجامدة، من خلال نقده للصورة النمطية عن الغرب والبادية في بعض الكتابات العربية، وتجاوزه إياها، من خلال تقديم نقد موضوعي للرؤية العربية للولايات المتحدة (الغرب)، والتي تشوبها المواجهة القلقة، والمتراوحة بين الانبهار بالقيم الغربية والرفض لهيمنة الغرب الإمبريالية.

وترتكز تلك الدراسة على أهمية «النقد الذاتي» الواعي الرامي إلى مجابهة كل صور التسلسل والهيمنة الطاغية، وهو ما كان يراه إدوارد سعيد الدور الأساس للناقد، وما كان يمثل حافزاً للباحث عيد محمد الذي ألهمته تجربة صعود الرئيس أوباما سدة الحكم في أميركا، ثم ثورات الربيع

إدوارد سعيد في نقده للاستشراق، يمثل كتاب الاستغراب العربي، مساهمة لافتة بالتركيز على الحالة المصرية من خلال رصد تصوو(ي)ر مجموعة منتقاة من الكتاب المصريين للولايات المتحدة/ الغرب، في أعمالهم الأدبية، أو السينمائية، أو كتاباتهم الصحافية، عقب أحداث 11 سبتمبر، ثم غزو العراق، وحتى قدوم الربيع العربي. وتتضمن هذه المساهمة تحليلاً نقدياً للخطاب الاستغرابي العربي المناهض للخطاب الاستشراقي الغربي، والداحض حججه القائمة على الثنائيات المتعارضة، والمبنية على تصورات/ تخيلات الغرب للشرق ومزاعمه الاستعمارية تجاهه، مستشهداً بطائفة ثرية من المنتجات الثقافية والأدبية التي تنوعت ما بين صور ورسوم كرتونية، وأعمال سينمائية، وروايات وقصائد شعرية لكتاب مصريين، من دون إغفال أعمال بعض الكتاب العرب المقيمين في الولايات المتحدة، وهي المساهمة التي تفرد بها الكتاب عن الدراسات السابقة حول الاستغراب العربي. ويتألف الكتاب الذي هو صورة منقحة لرسالة الدكتوراه للباحث، من مقدمة وأربعة فصول، ويستعرض الكاتب في مقدمته قراءته النقدية لمنظور إدوارد سعيد عن الاستشراق وتسليطه الضوء على عملية «إعادة التدوير» العربية للصور النمطية الغربية عن الشرق، وتحويلها إلى مادة لنقد الغرب ذاته، وكيف أن الخطاب الاستغرابي العربي يعد أحد صور المقاومة الفاعلة للخطاب الاستشراقي الغربي، وكيف شمل هذا الخطاب تمييزاً بين الدور الملهم للولايات المتحدة برئاسة باراك أوباما ك «نموذج للتغيير»، أو، بحسب الكاتب، محاولة لفهم العلاقة بين «عصر أوباما» و«عصر الربيع العربي». كما تضمنت المقدمة إشارة إلى الرؤية المتوازنة للأعمال المختارة في

العربي، للبحث عن رؤى تعددية تجسر الهوة بين الثنائيات الجامدة، المحكومة بالجهل بالآخر والمنحصرة بين قطبي الاستيعاب والرفض، والتي مثلت عائناً لنهضة عربية مأمولة، تفيد من منجز حضاري غربي (في ثوب الحداثة)، من دون أن تخضع لهيمنتها السياسية ومغالطاته الاستشراقية. كما تمثل الدراسة حلقة في سلسلة النقد الذاتي الواعي التي حمل لواءها أكاديميون مرموقون، كالراحل عبد العزيز حمودة الذي شكلت مراهه المحدبة والمقكرة تأصيلاً لعملية نقد ذاتي واع باتجاه تأسيس «نظرية نقدية عربية»، والناقد كمال عبد الملك الذي يسعى في أعماله لبناء أرضية مشتركة بين الشرق والغرب، في تجاوز للصورة النمطية والرؤى الأحادية.

ولا شك في أن تلك الكتابات النقدية تشترك في وعيها بميزات عملية التمثيل وقبورها representation، والتي على الرغم من أهميتها في إضفاء نوع من الفاعلية في إنشاء الصور الذهنية أو تقديمها؛ فإنها لا تُمكن من الإحاطة الكاملة بجوانب القضية الممثّلة، وهذا القصور في التمثيل يبدو جلياً في تصوو(ي)ر المستشرقين للشرق، وهو ما دفع إدوارد سعيد إلى تقديم كتابه الاستشراق الذي أسس فيه لمنهجه في النقد الثقافي، وكشف فيه أوجه التناقض والقصور للصور التمثيلية للشرق في الكتابات (الأدبية) الغربية، وفساد المغالطات النمطية الاستعمارية الثابتة والسائدة، من كون الاستعمار الغربي ضرورياً لمساعدة الشرق على التحضر وكون المستعمر الأوروبي «المتحضر» متفوقاً على المستعمر الشرقي «المتخلف».

وفي إطار سعي الكُتّاب العرب لعرض الصور التمثيلية الشرقية للغرب، جبراً لثغرة لم يعالجها

في الولايات المتحدة، تتجاوز الثنائية المتعارضة بين الهويتين العربية والأميركية والتي رسخها المستشرقون. وهنا يسلط الباحث الضوء على تقديم الروائيتين أصواتاً معتدلة مقاومة لفرضية «صراع الحضارات»، وللتصوير الشمولي للأنا وللآخر.

وفي الفصل الثاني، وعنوانه «الولايات المتحدة في الإعلام والحياة الثقافية العربيين»، يناقش الباحث قضية التمثيل/ التصوير ودورها في تكوين الاستغراب، من خلال دراسة حديثين معبرين؛ أولهما رمي جورج بوش بالحذاء على يد صحفي عراقي، وثانيهما انتخاب باراك أوباما رئيساً للولايات المتحدة، وبيان أثر التمثيل وإنتاج المعرفة بصورة تعرقل التفاعل البناء بين الولايات المتحدة والعالم العربي، في محاولة لردم الهوة في فهم «الآخر غير المُمثَّل». وفي سبيل ذلك، يستعرض الباحث طائفة من الكتابات المختلفة في توجهاتها والمتشابهة، على الرغم من ذلك، في ردة فعلها إزاء الحدثين.

يتبع ذلك الفصل الثالث، وعنوانه «الولايات المتحدة في السينما العربية ما بعد الحادي عشر من سبتمبر»، والذي يناقش فيه الباحث الخطر الناشئ عن القهر والإقصاء والشيطنة على إمكان الحوار البناء بين الولايات المتحدة والعالم العربي، كاشفاً عن الثغرات وحالة السيولة في الصورة التي قدمتها الأعمال السينمائية المختارة للدراسة، وعن مركزية الصراع العربي/ الإسرائيلي، والحرب على العراق، ومشاعر العدا للعراب، في هذه الأعمال، إلى جانب تسليط الضوء على التفسيرات الجديدة التي قدمها صناع هذه الأفلام من منظور «الآخر المقهور»، أملاً في الدفع نحو عالم خال من الحروب والصراعات،

من حيث تركيزها على مظاهر اختلاف الثقافة العربية عن نظيرتها الأميركية، ولكن من دون تجاهل أوجه التشابه الجوهرية، وإلى أنها، في النتيجة، تشغل منطقة وسطاً بين تيارين؛ أحدهما رافض للآخر إلى درجة الإنكار، وآخر منبهر بذلك الآخر إلى درجة الخضوع الأعمى له. إضافة إلى ذلك، يشير الكاتب إلى أن اختياره للحالة المصرية مبني على محورية مصر في العالم العربي وعراقه تاريخها الحضاري، كما أن اختياره للكتابات الأدبية والثقافية ذاتها مبني على شهرتها اللافتة في العالم العربي. وتختتم المقدمة بطرح الأسئلة الرئيسة التي تعالجها الدراسة، وعلى رأسها أنماط تصوير/ تقديم أميركا والأميركيين في الأدب والسينما في مصر بعد أحداث 11 سبتمبر، والموضوعات المركزية في أنماط التصوير هذه، وتأثرها بتمثيل العرب والمسلمين في الأدب والإعلام والسينما في الولايات المتحدة، وخاصة في ظل أحداث جسام، كأحداث 11 سبتمبر، والحرب على الإرهاب، وغزو العراق وأفغانستان، وذلك كله في إطار نزعة الهيمنة الإمبريالية الأميركية، ولكن أيضاً في إطار نزعة عربية لاستيعاب تاريخ الاستشراق والاستغراب، وأيضاً لبناء جسور التفاهم والتواصل البناء بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط.

أما الفصل الأول، وعنوانه «الولايات المتحدة في الأدب العربي ما بعد الحادي عشر من سبتمبر»، فيستعرض بالنظر النقدي روايتي شيكاغو لعلاء الأسواني، وطبور الجنوب لأناني أبو الفضل، وكيف تقدم الأولى صورة للعرب/ المصريين في الولايات المتحدة ورؤيتهم لذواتهم ولوطنهم الأم وللولايات المتحدة التي وفدوا إليها، في إطار سردية مناهضة للسردية الأميركية مركزية النزعة، من منظور العرب الذين تلقوا تعليمهم

وتأكيد الذات خلال المواجهة مع المستعمر، وأيضاً في تكوين ثقافة هجينة جديدة تشمل الثقافة القومية وثقافة المهجر (لأصحاب الهوية العربية/ الأميركية) وتتجاوز حاجز التاريخ والزمن، بصفتها حلاً لأزمة الهوية في واقع ما بعد الاستعمار. وفي هذا الإطار تعتمد حلبي على تراث وطنها الأم لمواجهة حالة الإقصاء والاعتراب التي تعانيها بطلتها في مهجرها.

إن حالة التنوير المعرفي التي يقدمها هؤلاء الكتاب هي التي تبني جسراً في سبيل تقديم صورة صحيحة عن العرب في الولايات المتحدة والعكس، ومن ثم تمهيد الطريق لعملية تواصل بناءة لكسر ثنائية الشرق/ الغرب، وهو ما يسعى الباحث عيد محمد جاهداً لتقديمه من خلال دراسة موضوعية للعلاقة الشائكة بين الشرق والغرب. وتتفرد الدراسة في كشف النقد الذاتي للأعمال العربية في قصورها الاستغرابي بتقديم صورة أحادية مختزلة عن الولايات المتحدة إلى جانب نقد أوجه القصور في التمثيل الاستشراقي للعرب والمسلمين عموماً، وفي تأكيد دينامية عملية التمثيل المتبادل ذاتها وأثرها في تكوين صورة ليست للآخر فقط، ولكن للذات أيضاً، وهذا ما يجعل الكتاب جديراً بالقراءة، وخاصة في مجال الدراسات الثقافية والأدبية، ودافعاً لمزيد من البحث النظري والتطبيقي الخاص بمصطلح الاستغراب حديث الظهور.

من خلال عرض صورة صحيحة لهذا الآخر بعيداً من المغالطات التنميطية وسوء الفهم. وقد تضمن هذه التحليل الجوانب الاستغرابية في تلك الأفلام، من حيث تقديمها صورةً نمطيةً مختزلة عن «الآخر» الأميركي كمستعمر في الأساس.

وبعنوان «رد الفعل الثقافي للعرب الأميركيين على أحداث الحادي عشر من سبتمبر وتداعياتها»، يناقش الباحث نصين أدبيين لكاتبتين عربيتين/ أميركيتين، هما ديوان رسائل إلكترونية من شهرزاد لمهجة كهف، ورواية ذات مرة في أرض موعودة لليلى حلبي. ففي ديوانها، تسج مهجة كهف فضاءً تمثيلاً من أسطورة ألف ليلة وليلة للتعبير عن معاناة الأقلية العربية/ المسلمة في المجتمع الأميركي، وعن صوت هذه الأقلية الغائب عن الخطاب القومي في كل من أميركا والعالم العربي، من خلال استلهاهم التراث العربي، بوصفه معالجاً موضوعياً في مواجهة أزمة 11 سبتمبر. وللموازنة بين الأصالة والمعاصرة أو الملاءمة بين التراث والحداثة في عملية التعبير عن الذات؛ تلجأ مهجة كهف إلى الربط بين عملية استعادة التراث من خلال أسطورة شهرزاد والدور الرائد في تخليص جنس النساء من سلطوية ذكورية وفي تحرير المرأة.

أما ليلى حلبي، فهي تنشئ لقطة استرجاعية طويلة لتسليط الضوء على أثر الماضي في إثراء الحاضر،



مجموعة مؤلفين

دور المثقف في التحولات التاريخية

يتناول هذا الكتاب عددًا من الأسئلة والإشكالات الأساسية التي تهتم المثقف ودوره في التحولات التاريخية، مثل: أنماط المثقف العربي الحديث والمثقف والتاريخ والتاريخانية والمثقفون العرب والتحوّلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية والفكرية، والرمزية والسيميوتيقية الجارية في المرحلة الراهنة من عملية التغيّر الاجتماعي في الوطن العربي والعالم، وعلاقة المثقف بالخبير والباحث وأدواره وأخلاقياته وأسئلة التاريخ ذات الصلة، وتحول المثقف العربي في زمن العولمة والتنمية الثقافي، والإشكالية الأبدية لعلاقة المثقف بالسلطة، وتصوّراته ومواقفه وتقاطعاته معها، وعلاقة المثقف العربي بالجمهور والثورة والنضال من أجل الديمقراطية، فضلاً عن أسئلة كثيرة يطرحها بروز المثقف الشبكي، وتحولات القيم والمعنى في عالم متغير.

في الأصل طُرحت هذه الموضوعات في المؤتمر السنوي الرابع للعلوم الاجتماعية والإنسانية الذي عقده المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات في مراكش - المغرب (19-21 آذار/مارس

(2015)